السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

المحورالرابع: سقوط غرناطة 1492 وانعكاساته

أ.د. عبد القادر فكاير

أولا: وقائع سقوط غرناطة

1- مملكة غرناطة والصراعات الداخلية:

بينما كانت مملكتا قشتالة وأراغون في طريقهما إلى التوحيد، وبصدد تكوين دولة أسبانيا الحديثة، كانت مملكة غرناطة تعيش أياما حاسمة من تاريخها يحكمها السلطان أبو الحسن منذ سنة 1465، الذي كان يتسم بالشجاعة والميل إلى الجهاد ، فقد شرع في تحصين مملكته وتقوية جيشه ، و بادر إلى قتال النصارى، وتمكن من استرداد بعض القلاع والحصون، كما أوقف دفع الجزية التي كان يدفعها والده إلى مملكة قشتالة . ولكنه ما فتئ أن واجه في بداية حكمه ثورة من أخيه أبو عبد الله المعروف بالزغل، الذي كان واليا على مالقة ، مستعينا بملك قشتالة هنري الرابع ، ودام النزاع بينهما ثلاثة سنوات، انتهى بابرام الأخوين لمعاهدة صلح يبقى بموجبها أبوعبد الله الزغل حاكما مستقلا على مالقة وأحوازها. وفي سنة 1478 أرسل الملكين الكاثوليكيين سفيرا إلى غرناطة يطلب من أبو الحسن دفع مؤخر الجزية ، فرد الملك على السفيربالرفض.وهكذا اختار أبوالحسن المواجهة بدل الخضوع، فاستولى على قلعة الصخرة سنة 1481. وذكر عنه أنه استسلم إلى حياة الدعة والترف، اقترن خلالها بجارية رومية اسمها ثريا التي وقد أنجبت له ولدان، وكان لأبي الحسن ولدين آخرين من زوجته الأولى عائشة، المعروفة "بالحرة "، وهما أبوعبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف. ورغبة منها في منع أكبر أبناء عائشة لولاية العرش ، وترشيح أحد أبنائها لهذا المنصب ؛ راحت ثريا تضع المكايد، ضد عائشة وتؤثر على السلطان إلى أن أقنعته بوضع الملكة وولديها في السجن . لقد أثار هذا العمل غضب كثير من الأشراف. وبمساعدة أنصارها من بني سراج تمكنت عائشة أن تفر من معتقلها مع ولديها وذلك في سنة 1482، وتوجهت إلى وادي آش في جبال البشرات، وهناك التحق بهم عدد كبير من الأتباع. وقامت إثر ذلك ثورة قام بها أغلب سكان غرناطة يدعون للأمير أبوعبد الله ضد أبيه أبي الحسن الذي كان مشغولا في محاربة النصارى في الدفاع عن لوشة. فلم يستطيع هو وأنصاره إخضاعهم لسلطته ، ففر إلى مالقة حيث أخوه أبو عبد الله الزغل، بينما جلس ابنه أبو عبد الله محمد وذلك في أواخر سنة 1482 .

2-غرناطة بين الحرب الأهلية وهجمات النصارى:

كان النصارى يترقبون كل ما كان يحدث بين المسلمين ، فاجتمع قادتهم في مدينة انتقيرة مع قواتهم البالغ عددها 2700 فارس ، وعدة كتائب قصد احتلال مالقة . غير أن أبوعبد الله الزغل استطاع رد هجومهم في معركة الشرقية وتمكن من القضاء على نحو 3000 رجل، ذلك في شهر مارس 1483. وكان أبو الحسن في تلك الأثناء يقاتل القوات الموالية لابنه في منطقة المنكب حيث تفوق عليه في موقعة الدب .

أراد أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه إثر الانتصار الذي حققه على الأسبان في مالقة . فتحت تشجيعات الأمير علي العطار، خرج على رأس قوة تتألف من 9000 من المشاة و700 فارس متوجها إلى قرطبة، وعندما بلغ بلدة لوشينا(Lucina) ، واجه قوات النصارى في معركة عنيفة، انهزم فيها جيشه ، وخسر أكثر من 5000 بين قتيل وجريح، كان من بين القتلى علي العطار، ومن بين الأسرى الملك أبو عبد الله ، الذي اقتيد إلى قرطبة حيث سجن في قلعة بيانة ، وذلك في أفريل 1483 .

حاول الغرناطيون تجاوز محنتهم ، حيث اجتمع أعيانهم وقرروا استدعاء أبو الحسن الموجود في مالقة ليتولاهم ، لكنه اعتذر عن تلك المهمة ، وتنازل عن العرش لأخيه أبو عبد الله الزغل ، وتوحدت الملكة التي كانت منشطرة إلى قسمين . لكن أسر أبوعبد الله لدى النصارى كان له انعكاسات خطيرة على المسلمين، حيث كان الملك الأسير ضعيف الشخصية غير متمتع بالخصال الباهرة التي كان يتصف بها أسلافه من بني الأحمر، لقد كان يرغب في العودة إلى عرش غرناطة بأية صورة كانت.

أدرك أعداؤه تلك الصفات، ولما أصبح مهيئا لكل ما يريدون عقدوا معه معاهدة سرية ، مما جاء فيها : أن يعترف بالطاعة والتبعية للتاج الأسباني ، وأن يدفع لهم جزئي سنوية قدرها 12 ألف دوبلا من الذهب. ثم أطلق سراحه في أوائل سنة 1485، بعد أن قضى في الأسر أكثر من سنة ، وتوجه رأسا إلى حي البيازين الذي كان يدين له بالولاء، وتحصن القصبة حيث كانت أمه تنتظره . ولما انتشر الخبر بين الناس انقسموا بين مؤيد لأبي عبد الله وبين من كان مؤيدا لوالده أبي الحسن .وقامت من جديد الحرب الأهلية بين الطرفين استغلها الأسبان في الانقضاض على الحصون والحواضر الإسلامية فاحتلوا مدينة رندة سنة 1485. وتواصل خطر النصارى وسط فتنة غرناطة الداخلية ـ حيث كان الطرفان في حالة مفاوضات بهدف الوصول إلى صلح ـ فهاجموا مدينة لوشة ، التي كانت من نصيب عبد الله الصغير واحتلوها سنة 1486 ، وقد شاع في تلك الأثناء بأن السلطان تظاهر بالدفاع عن المدينة باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، صرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر. واحتل النصارى بعد ذلك مجموعة من الحصون الإسلامية منها حصن ملكين، قلنبيرة ، منتفريد ، الضحة، الصخرة. ثم قاموا بتحصينها وترميمها وتزويدها بالقوات العسكرية استعدادا لحصار غرناطة. لم يتوقف فيردناند عن الكيد للمسلمين في ظل الحرب الأهلية التي ازدادت حدة

في أواخر سنة 1486 ، فعندما التحق أبو عبد الله الصغير بحي البيازين قام فرديناند بتقديم له العون المادي والعسكري ، وقام من جهة أخرى بحملة على مدينة بلش، ورغم خروج الزغل إليها واستماتة أهلها للدفاع عنها ،إلا أنها سقطت في يد النصارى في أفريل سنة 1487 ، وتفرق أهلها في مختلف أرجاء الأندلس الإسلامية ، ومنهم من قطع البحر إلى شمال إفريقيا. ثم توجهت أنظارهم إلى مالقة أحد الثغور الإسلامية المنيعة ، ونقطة اتصال بالممالك المغربية. ولقطع ذلك الاتصال حاصرةها برا وبحرا ، وقاوم أهلها وصمدوا في وجه الحصار ، حتى نفذ ما كان لديهم من الزاد حتى استهلكوا حيواناتهم ، ومات الكثير منهم جوعا، عندئذ استسلموا ودخل العدو بلدهم وذلك في أوت 1487، بعد حصار دام 3 أشهر .

ونتيجة لتلك الأخطار أوفد أبوعبد الله الزغل سفارات إلى الممالك المغربية ومصر والدولة العثمانية يطلب المساعدات، لكنه لم يتلقى شيئا بسب الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الأخرى. ولكن يمكن التوقف عند حكام تلمسان ، فقد ذكر "ايرفينغ" أن الملك الزياني أبو عبد الله محمد الثابتي أرسل مبعوثا يحمل هدايا إلى الملكين الكاثوليكيين، وطلب منهما أن يعفوا عن سكان مدينة مالقة الذين أسروا وسبوا ، ومنحهم نفس الوضع الذي كان عليه سكان المدن الأخرى التي كانت تابعة لهما.

بعد سقوط مالقة لم يبق للمسلمين من المواقع المطلة على البحر سوى المنكب والمرية يمكن لهم الاتصال بإخوانهم في الممالك المغربية ، أو وصول المتطوعين عبرها. وتمهيدا لحصارهما وقطع الإمدادات عنهما؛ شرع فيرديناند في احتلال الحصون والقرى القريبة من الثغرين، ثم استولى على ثغر المنكب في خريف سنة 1489 ، وبعدها فرض الحصار على المرية ، وأجبر أهلها على التسليم في شهر فيفري 1490، وخرج عدد كبير من سكانها إلى سواحل بلاد المغرب.

وبعد ما أكمل فيرديناند السيطرة على جميع الثغور الإسلامية وعزل أهل غرناطة من الاتصال بالمسلمين في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، احتل "بسطة" التي كانت تحت سلطة الزغل الذي كان في معقله بوادي آش ، فتركها لمصيرها تقاوم لوحدها، وسقطت في النصارى في ديسمبر 1489 بعد حصار دام أكثر من 6 أشهر ، وغادرها أهلها إلى وادي آش ، آخر معقل بقي يحكمه أبو عبد الله الزغل ، ولما أدرك هذا الأخير بعدم جدوى المقاومة ، لكونه أصبح محاصرا من جميع الجهات ، فضل الاستسلام والانضواء تحت طاعة فرديناند. لكنه أدرك بعد حين عدم قدرته على العيش في ذلك الوضع المهين ، فتنازل عن الحكم وترك الأندلس وهاجر إلى المغرب الأوسط في سنة 1490، حيث نزل بوهران ثم انتقل إلى تلمسان حيث قضى فيها بقية حياته.

2- حصار غرناطة وسقوطها :

كان على أبو عبد الله بن أبي الحسن أن يسلم غرناطة عند سقوط بسطة والمرية ووادي آش حسب الشروط التي كانت ضمن المعاهدة التي أبرمها مع النصارى عند

إطلاق سراحه. وبناء على ذلك أرسل ملك قشتالة مبعوثا إليه يدعوه إلى تسليم غرناطة ، غيرأن شعب غرناطة أرغموا ملكهم على رفض طلب القشتاليين.ولما علم فيرديناند بذلك الموقف شرع في الاستعداد للحرب ، وقامت غرناطة من جهتها تستعد للمقاومة تحت قيادة موسى بن أبي غسان.

وفي ربيع سنة 1490 خرج فيرديناند إلى غرناطة على رأس قوة تتألف من خمسة آلاف فارس وعشرين ألف من المشاة . وعاث في حقولها ومزارعها فسادا ، فقام بقطع الطرق ، وخرج إليه المسلمون فوقع بينهما قتالا عنيفا ، استطاع المسلمون قتل العديد منهم. ولما يئس فرديناند من اختلال غرناطة ؛ رجع من حيث أتى . ورغم خروج أبوعبد الله مع قواته من أجل استرداد بعض الحصون ، منتعشا بنشوة رد الأعداء عن غرناطة ، مدفوعا بشعور الحماسة الدينية لدى الناس ، إلا أن ذلك الموقف جاء متأخرا . ففي أفريل 1491 عاود الملك الملك الكاثوليكي الهجوم على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف رجل ، وفي طريقه إلى غرناطة أنشأ مدينة محاطة بالأسوار لحماية نفسه وجيشه أطلق عليها اسم سانتا في(Santa-Fe) .وأصبحت غرناطة تحت الحصار الذي دام لمدة سبعة أشهر، فقل الطعام واشتد الجوع وانقطعت الإغاثات التي كانت تأتي من الجنوب ، عندئذ اجتمع الأعيان والفقهاء وقواد الجيش مع أبو عبد الله ، وتناقشوا حول المخرج الذي يختارونه لوضعهم المتردي إما التسليم أو الموت ، وفي الأخير اختاروا التسليم . غير أن هناك من وقف ضد هذا الموقف وهو موسى بن غسان ، ولم يكن لموقفه من أثر . وأرسل أبو القاسم عبد الملك إلى معسكر النصارى مزودا بشروط التفاوض، وبعد أيام من التفاوض اتفق الطرفان على وضع معاهدة التسليم التي وقع عليها الطرفان في 25 نوفمبر 1491 تضمنت سبعة وستين بندا ، وحددت المعاهدة مهلة التسليم بسبعين يوما ، لكن أبو عبد الله سلم غرناطة قبل الموعد المحدد بشهر ، وذلك في 2 جانفي 1492.ثم خرج منها باكيا وأمه عائشة تعاتبه بمقولتها الشهيرة ((فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال)). ولما اطمأن الملك الكاثوليكي من خضوع غرناطة التام دخلها ، وقد سبقه إليها قوة كبيرة من الجند ، . وفعل أبو عبد الله كما فعل عمه ، فلم يتحمل البقاء على ذلك الوضع خاصة وأن فرديناند كان ينظر إليه بعين الريب ، فغادر الأندلس مع أسرته ، واتجه إلى المغرب حيث أقام في مدينة فاس .ويفهم من كلام صاحب " أخبار العصر " أن أبو عبد الله لم يخرج من الأندلس عن طيب خاطر حين قال : ((نزل قرية أندريش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ث أن الطاغية ظهر له أن يصرف الأمير محمدا إلى العدوة ، فأمر بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة)) .

ثانيا:انعكاسات سقوط غرناطة على منطقة غربي المتوسط

1- انعكاسات سقوط غرناطة على الأندلسيين:

لقد أبدى الأسبان في السنوات الأولى من سقوط غرناطة سياسة لينة تجاه المسلمين ، متظاهرين باحترام معاهدة الاتفاق ، غير أن الخشية والشك كانت تساور أنفسهم في أن يثور المسلمون ، خاصة وأنه كان لديهم صلات بمسلمي الممالك المغربية والدولة العثمانية . ولكن الروح الصليبية التي تميز بها الملكان الكاثوليكيان، التي كانت واقعة تحت تأثير الكنيسة ، جعلت سياسة التساهل مع المسلمين لم تدم طويلا ، وبدأت تتحول إلى انتهاك شروط الاتفاق ، وذلك بتعديل نصوصه . ففي سنة 1495 فرضت ضرائب جديدة على المسلمين فقط. ولم تستمر سياسة التظاهر بالالتزام بالشروط أكثر من أربعة سنوات ، حتى بدءوا في خرقها . ففي سنة 1499 بدأت سياسة التنصير التى بها الكاردينال خيمينيس عند انتقاله إلى غرناطة ،وقد أدت تلك الحركة إلى اعتراض المسلمين ، حيث ثار سكان حي البيازين في ديسمبر من نفس السنة . كما قام الكاردينال بغلق المساجد وحرق الكتب والمخطوطات التي بلغ عددها حوالي 800 ألف . وفي 12 فيفري 1502 صدر مرسوم ملكي يخير المسلمين بين النصرانية مغادرة الأندلس . وقد وصفت بعض المصادر الإسلامية تلك السياسة ، فقد جاء في كتاب "أخبار العصر": ((فلما رأى ملك الروم أن الناس تركوا الجوار[أي الهجرة] وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط ...فصلا فصلا...وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ...وفرضت عليهم ...ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكره عليه ...ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا من يقولها في قلبه)). وقد زادت معاناة أهل الأندلس مع ظهور ديوان التحقيق الذي يقوم بإجراء تحريات عن حقيقة بقاء المسلمين على دينهم ، وكان المدان ينال مختلف أنواع التعذيب منها الموت حرقا.

ومن بين ردود فعل المسلمين ، أن العديد منهم تنصر ، خاصة عندما كان النصارى يستعملون الوعد والوعيد لتنصير الأعيان ، وهذا ما جعل العامة يتبعونهم. وهناك من كانوا يخفون إسلامهم . ولما وصلت أخبار معاناتهم إلى إخوانهم في بلاد المغرب وتخوفهم عن مدى صحة إيمانهم أرسل لهم أحد فقهاء الجزائر سنة 1504 ، وهو أحمد جمعة المغراوي خطابا يطمئنهم بصحة إيمانهم ومما جاء في ذلك الخطاب : ((إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ...فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها لفقيركم أو رياء ، والغسل ...ولو عوما في البحر ... إن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فاحرموا بالنية ... وإن أكرهوكم على حرام فافعلوه منكرين بقلوبكم)).

كما أدت عمليات التنصير الإجباري إلى قيام الثورات ، كالثورة التي وقعت في حي البيازين سنة 1499 لكنها قمعت بكل قوة ، وسرعان ما اندلعت ثروة أخرى أعنف منها في جبال البشرات في جانفي 1500، فاستولى الثوار على العديد من الحصون وقتلوا قسيسي القلعة اللذين كلفا بتنصيرهما وهما دي ميدلين والونسو غاسكون ، كما أسروا العديد من سكان الأحياء المسيحية ، وأرسل فرديناند قوات عسكرية بقيادة الدون

ألونسو دي أغيار (Aguillar) . غير أن المسلمين ألحقوا بهم هزيمة فادحة فقتلوا منهم الكثير على رأسهم دي غيار نفسه ، وذلك في مارس من سنة 1501 . ولوضع حد لتلك الثورة لجأ الملك إلى إعلان العفو الشامل عن الثوار مقابل دخولهم في دين المسيحية ، أو يغادروا البلاد دون أن يأخذوا أموالهم وممتلكاتهم إلا ثيابهم التي يلبسونها.

وللحفاظ على أرواحهم ودينهم اضطر الأندلسيون إلى الفرار إلى بلاد الإسلام ، فعلى الرغم من عدم قدرة المسلمين سواء في المشرق أو في المغرب من تقديم لهم العون العسكري أو المادي الكافي ، بسبب الأوضاع الداخلية المتدهورة ، إلا أنهم فتحوا لهم بلادهم ، بل قطعوا البحر بقواربهم إلى ثغور الأندلس وساهموا في ترحيلهم إلى أوطانهم. إن أغلب تلك الهجرات كانت إلى الممالك المغربية وقليل منهم من هاجر إلى المشرق ، فقد وصلت جماعة منهم إلى القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام. وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس.

2- الغزو الإسباني لسواحل شمال إفريقيا:

إذا كان الأسبان قد نجحوا في احتلال بعض المدن الساحلية لفترات متفاوتة من الزمن ، فإنهم فشلوا في السيطرة على مدن ساحلية أخرى رغم جديتهم في مسعاهم التوسعي . غير أن الشيء الملفت للانتباه هو أنه رغم الاندفاع الذي أبداه القادة الأسبان نحو الأراضي الجزائرية بقواتهم العسكرية ، وتمكنهم من احتلال بعض المواقع الساحلية إلا أنهم لم يتمكنوا من التغلغل إلى المناطق الداخلية من البلاد . باستثناء قدرتهم على الوصول إلى مدينة تلمسان مرورا ببعض المناطق المؤدية إليها . وقد تم الغزو على مرحلتين أساسيتين ، المرحلة الأولى في القرن السادس عشر ، والمرحلة الثانية ما بعد هذا القرن.

أولا : في القرن السادس عشر :

تميز هذا القرن بتعرض الجزائر إلى غارات أسبانية عديدة ، نجحوا في بعضها في احتلال بعض المدن وفشلوا في أخرى . وقد استعمل الأسبان طرقا مختلفة في فرض سيطرتهم على المدن الساحلية الجزائرية، من أهمها طرقتان رئيسيتان هما : أسلوب القوة العسكرية ، وأسلوب فرض المعاهدات على زعماء المناطق التي وصلوا إليها ، تحت طائلة التهديد . أما المناطق التي احتلوها بالقوة العسكرية فهي: احتلال المرسى الكبير 1505. احتلال وهران 1509. احتلال بجاية 1510.

بعدما خضعت المدن السابقة الذكر إلى الاحتلال العسكري، تعرضت مدن أخرى وإمارات إلى نفس المصير إذ وجدت نفسها مجبرة على توقيع معاهدات الولاء للأسبان نذكرها فيما يلي: مدينة تنس سنة 1508، مدينة الجزائر سنة 1510، مستغانم سنة 1511، مملكة تلمسان سنة 1511.

إلى جانب ذلك شن الإسبان حملات على بعض المدن الساحلية، ولكنهم فشلوا في احتلالها ، أو البقاء فيها لمدة أطول، رغم دخولهم إليها وهي : فشلهم في احتلال شرشال 1531 ،احتلال مدينة هنين سنة 1531،ثم انسحابهم منها سنة 1534 بعد تخريبها، فشل

الأسبان في الاحتفاظ بمدينة عنابة إثر احتلالها سنة 1535 ،ولم يمكث الجنود الأسبان بعنابة إلا خمسة أعوام فقط حيث تمكنت القوات الجزائرية من محاصرتهم ، وأجبرتهم على الانسحاب سنة 1540. وقد جاء رد الإمبراطورشارل الخامس سريعا لضرب مدينة الجزائر في السنة الموالية حيث قام بحملة شارلكان على مدينة الجزائر1541 لكنه اضطر إلى الانسحاب وتعود أسباب ذلك إلى :

1 ـ استصغار الإمبراطور بشأن الجزائر واعتقاده بتحقيق النصر نظرا لطبيعة القوة العسكرية التي جاء بها.

2 ـ حسن قيادة حسن آغا وشجاعته في العمل على رد العدوان ، فلم يترك السكان يستسلمون لليأس . وذكر أنه قد ركب حصانه وطاف في المدينة يشجعهم. وقد استجابوا للأمر فصمدوا وتضامنوا أمام أعدائهم .

3 ـ فعل الزوبعة البحرية التي أتت على تحطيم 150 سفينة من أحجام مختلفة كانت راسية في البحر ، أو غرقت.

فشل الأسبان في احتلال مستغانم (1558-1543): حيث وجهوا ضدها ثلاث حملات، في سنوات 1543 و 1547 و 1568. ولكنها كلها انتهت بالفشل، بل تم في الحملة الثالثة قتل قائد الحملة الكونت دالكوديت حاكم وهران سنة 1558.

و فشل الإسبان كذلك في احتلال مدينة الجزائر1567 إثر حملة قادها خوان غاسكون. وفي بداية القرن الـ17 فشل الإسبان في مخططهم لاحتلال الجزائر سنة 1601، كان أعدها أعدها جاسوس فرنسي يدعى روكس(Roux). وخلال القرن الثامن فقد أعاد الإسبان احتلال مدينة وهران 1732 ، بعدما سبق وأن حررها الباي بوشلاغم سنة 1708. وفي أواخر القرن الثامن عشر وجه الإسبان على مدينة الجزائر ثلاث حملات ، لكن في كل مرة كانوا يرجعون منهزمين . وتتمثل هذه الحملات في حملة أوريللي سنة 1775، وحملتي أونطونيو بارثيللو في سنتي 1783، 1784 على التوالي .

3- المد العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط:

أخذ السلطان سليم الأول على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الأوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقد عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانيهم وسواحلهم من الأطماع الأوربية ، والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492.

ومن أبرز أولئك القادة البحاران عروج بن يعقوب وأخيه خير الدين اللذان كانا لديهما ينشط في البحر المتوسط ، وكان عروج منذ سنة 1510 يتولى إدارة جزيرة جربة الواقعة شرقي تونس بموافقة السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد بن الحسن 1494 – 1526 خمس الغنائم التي يحصل عليها من نشاطه البحري.وكان الأخوان يوجهان جزءا من نشاطها العمل على إنقاذ الاندلسيين ونقلهم إلى السواحل المغرب العربي ، فقد تمكنا من إنقاذ الآلاف منهم. وإثر احتلال الإسبان لمدينة بجاية اتجهت أنظار سكانها إلى عروج وأخيه خير الدين لإنقاذهما ، وقد لبى الأخوان الدعوة ، فقاما بعد محاولات، لكنهما أخفقا

في تحريرها بسبب مناعة حصونها. ثم انتقلا مدينة جيجل وأصبحت مركزا لنشاطهما منذ سنة 1514.

قرر عروج توجيه جهوده نحو تحرير ميناء الجزائر بعدما تسلم رسائل استغاثة من بعض الأهالي ، منها رسالة الشيخ ابو العباس بن احمد قاضي . ثم اتصل عروج بأخيه خير الدين الذي كان في تونس، فخرج خير الدين ومعه 21 سفينة تحمل 1500 مقاتل ، أما عروج فقد غادر جيجل على رأس قوة برية من 800 مقاتل، وجند في طريقه 5000 شخص من أفراد القبائل وذلك في سنة 1516. أدرك الاسبان أن قوات عروج أصبح يشكل تهديدا خطيرا لوجودهم في المنطقة ، فنجحت القوة الاسبانية في القضاء عليه سنة 1518 في معركة بين وهران وتلمسان.

أدرك خير الدين خطورة الاسبان بعد مقتل أخيه عروج ، أرسل بعثة إلى استانبول برآسة أبو العباس بن احمد بن قاضي لطلب الدعم العثماني. استقبلت البعثة بحفاوة كبيرة من قبل السلطان ، الذي قبل هديتهم ،واطلع على خطابهم وطلبهم المتعلق بطلب الحماية ، أدرك سليم الأول الأهمية الإستراتيجية ، التي تحتلها بلادهم وسائر السواحل المغربية المطلة على البحر المتوسط ، بالنسبة لتوسيع نشاط البحرية الإسلامية في هذه المنطقة ، والذود عن حمى المسلمين. وبناء على تلك الاعتبارات وافق السلطان على طلبهم ، وأثناء عودتهم ؛ أرسل معهم راية ، وخطابا إلى أهل مدينة الجزائر يعلمهم فيه أنهم أصبحوا ممن تشملهم عنايته ، كما أرسل معهم بعض قطع المدفعية ، وكميات من الذخيرة الحربية، بالإضافة إلى ألفي جندي ببنادقهم ، كما رخص بانتقال المتطوعين إلى الجزائر. فاستجاب لنداء السلطان أربعة آلاف متطوع ، الذين التحقوا بالجزائر. كما منح السلطان خير الدين لقب "بايلرباي " أي أمير الأمراء. وهكذا أصدر السلطان فرمانا يضع حمايته على الجزائر بطلب من الجزائريين أنفسهم ، وذلك في سنة 1519 ، أي بعد حملة مونكادي ضد الجزائر . وهكذا أصبحت الجزائر تعيش منذ هذه الفترة عهدا جديدا في كنف مساندة القوة العثمانية . وقد نجح خير الدين في تحرير قلعة البينون يوم 27 ماي سنة 1529 بعد ضربه عليها، وبذلك خلص مدينة الجزائر من نيران المدفعية الاسبانية التي كانت تسلط عليها من هذه القلعة التي لم تكن تبعد عن المدينة أكثر من 300 متر .

تونس:

فقد استدعي السلطان سليمان القانوني خير الدين باربروس إلى استانبول ليتفق معه حول الاجراءات التي يمكن اتخاذها لإيقاف الزحف الأوربي والعمل على تثبيت أقدام العثمانيين في الغرب العربي كجزء من عملية توسعهم في الوطن العربي.
قام خير الدين باعادة بناء الاسطول الجزائري ، واستعد لاقتحام تونس وضمان حرية التنقل بين شواطئ البحر المتوسط ، وفي 18 نيسان سنة 1534 استولى بسهولة على مدينة تونس بعد ان اغتنم الثورة التي نشبت فيها ضد حاكمها أبي محمد الحسن الحفصي

حليف الاسبان. وسرعان ما استنجد الحسن بالاسبان الذين هرعوا إلى تجميع اسطولهم في جوان سنة 1535 أمام ساحل سردينا والتوجه نحو تونس والاصطدام مع قوات خير الدين ومحاصرتها، عندئذ اضطر خير الدين للانسحاب إلى ميناء عنابة ثم إلى ميناء الجزائر، أما الاسبان فقد احتلوا مدينة تونس يوم 21 تموز 1535 وأعادوا الحسن إلى عرشه بعد أن عقدوا معه اتفاقا ضمن لهم مصالحهم وكان من أبرز بنود الاتفاق. وقد ظلت تونس تحت السيطرة الإسبانية إلى غاية سنة 1574، حيث تم تحريرها وأصبحت ولاية عثمانية.

ليبيا:

لقد قام الاسبان باحتلال لميناء طرابلس في سنة 1510، وفي سنة 1535 سلمت إلى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليهم الدفاع عنهم ضد المسلمين ، وكان هذا التسليم ضمن اتفاقية طالب فيها الفرسان من شارل الخامس تسليم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها البلاد الإسلامية. وفي أعقاب تولي خير الدين قيادة الاسطول العثماني سنة 1533 وضع خطة للاستيلاء على طرابلس ، إلا ان التدخل الأسباني في سنة 1535 أدى إلى فشل الخطة ، وفي 18 سبتمبر سنة 1551 نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية. أما إقليم برقة فقد كان تحت السيطرة العثمانية منذ الاستيلاء على مصر وقد أعلن زعماء إقليم فزان من أسرة بني محمد ولاءهم للعثمانيين. تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين من أمهم درغوث باشا ، الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها، كما أنشأ فرق الانكشارية هناك على أن اهتمام العثمانيين بليبيا ظل عسكريا بالدرجة الأولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية .

المغرب

أما المغرب فقد ظلت بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون لإخضاعها ، إلا أن ذلك لم يتحقق لسببين مهمين:

1: النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة 1578 الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في إيقاف الحملات الموجهة ضد مراكش .

2: ظهور شخصية المنصور السعدي الذي سعى للمحافظة على استقلال المغرب وعدم الخضوع للسيطرة العثماني.